

جينيالوجيا الأنساق الثقافية في الرواية الجزائرية المعاصرة وتمثلاتها على مستوى المضامين - رواية الليالي حبلى بالأقمار أنموذجاً -

The Genealogy of Cultural Forms in the Contemporary Algerian Novel and Its Representations at the Level of Contents - The Nights Pregnant with Moons Novel as a Model

ط.د.محموظ ملاوي^{1*}، أد.علي كرباع²

¹ جامعة الوادي، (الجزائر)، malaoui-mahfoud@univ-eloued.dz

² جامعة الوادي، (الجزائر)، korbaaali@gmail.com

تاريخ النشر: 2022/12/31

تاريخ المراجعة: 2022/12/22

تاريخ الإيداع: 2022/12/07

ملخص:

تهدف الدراسات الثقافية إلى مقارنة الثقافة، وبحث سماتها وأنظمتها، وتراتبياتها، والإشتغال على مواضع الخلل بين أنماطها وأشكالها الاجتماعية، والكشف عن عوامل وشروط تحول الخطاب فيها، سعياً إلى خلخلة آثار الهيمنة على موقع المهتمش في البناء الاجتماعي. وهذه الورقة البحثية تحاول قراءة بعض تلك الأنساق قراءة مقارنة من أجل بحث فاعلية النسق في تكوين المنظومة الخطابية في الرواية الجزائرية المعاصرة، والكشف عن المضمرات النسقية، وجدل المروحة بين المنطوق الجمالي والكامن الثقافي من خلال فعل الحفر. الكلمات المفتاحية: الأنساق الثقافية، الرواية الجزائرية، المضمر النسقي، الجينيالوجيا، الحفر الأركيولوجي.

Abstract:

Cultural studies aims at approaching culture, examining its features, systems, and hierarchies, working on the imbalances between its patterns and social forms, and revealing the factors and conditions for the transformation of discourse in it, in an effort to unravel the effects of domination on the position of the marginalized in the social structure.

This research paper attempts to read some of those patterns, a comparative reading, in order to examine the effectiveness of the pattern in the formation of the discursive system in the contemporary Algerian novel, and to reveal the systemic implications, and the controversy between the aesthetic utterance and the cultural potential through the act of digging.

Key words: cultural patterns, the Algerian novel, the systemic implied, genealogy, the drilling archaeological.

* المؤلف المراسل.

تمهيد:

إن الرواية المعاصرة باعتبارها جنسا أدبيا معقدا ومنفتحا في الان نفسه، تعطي صورة الأديب (المبدع)/ والمجتمع، باعتبارهما شخوصا مهمة، تسهم في بلورتها وإثرائها وتكوينها.

وقد أسهمت (الرواية) بالشكل الفاعل في خلخلة المتعارف عليه على مستوى الخطاب ؛ سواء أكان رسميا (نخبويا) في علاقته بالمؤسسة (السلطة)، أو شعبيا (مهمشا)، وكشفت عن أنماط (أنظمة) ذات أهمية نسبية موجبة بالأساس إلى القارئ / الجمهور، من خلال فعل الفهم والتفسير والتأويل.

من هذا المنطلق كان لابد من البحث عن تلك العلاقات الثنائية عبر التساؤل الآتي: إلى أي مدى استطاعت الرواية المعاصرة الكشف عن تلك المضمرات عبر بيناتها النصية من منظور الحفر الأركيولوجي الفوكوي وهل يمكن التسليم بهذا المنظور دلاليا؟ انطلاقا من النقد الثقافي.

إن النقد الثقافي كمنشأ خلاق يهتم بالمواضيع التي تنتجها الثقافة بكل مظهراتها مستعينا في ذلك بحقول معرفية مجاورة له تتقاطع فيما بين النقاد من جهة، وما بين مناهج الدراسات الثقافية من جهة أخرى، كنظرية الأدب والجمال والنقد، وأيضا التفكير الفلسفي وتحليل الوسائط، والنقد الثقافي الشعبي، وبمقدور النقد الثقافي أيضا أن يفسر (نظريات ومجالات علم العلامات، ونظرية التحليل النفسي والنظرية الماركسية والنظرية الاجتماعية والأنثروبولوجية.. إلخ) ودراسات الاتصال، وبحث في وسائل الإعلام والوسائل الأخرى المتنوعة التي تنبذ المجتمع والثقافة المعاصرة (وحتى غير المعاصرة)¹.

وهذا الطرح يجسد رؤية الناقد الأمريكي "فنسنت ليتش" حيث يرى أن النقد الثقافي يمكن له أن يتطابق مع النظرية الأدبية مابعد البنيوية من جهة، ومع مابعد الحداثة من جهة أخرى. وهذا ما يجعل هذا النشاط مجالاً ثقافياً / نقدياً منفتحاً على " المعطيات النظرية والمنهجية في السوسيولوجيا والتاريخ والمؤسسية، من دون أن يتخلى عن مناهج التحليل الأدبي النقدي"².

من هذا المنطلق وجب التنبيه على أن النقد الثقافي لا يدرس الثقافة كمادة خام فقط، بل يدرس تلك المنتجات الثقافية كخطابات تتضمن أنساقاً ومضمرات وتمثيلات، ويدرس أيضاً ما هو ظاهر من تلك الخطابات الجمالية والبلاغية، لأن الأمر في النهاية مرتبط بالأدب والثقافة التي أنتجت ذلك الأدب / الأديب، وهو ما يعبر عنه بالسياقات المختلفة، لهذا كانت القراءة الثقافية (الإبداعية) تتطلب وعياً بهذا الكل، وبهذا تصبح تلك القراءة قراءة تواصلية لا انفصالية.

وهذا ما يجب أن يستحضره القارئ الثقافي / الناقد الأدبي في محاورته لنصه سواء كان نصاً نقدياً أم عملاً شعرياً إبداعياً أم رواية أجناسية كلاسيكية أو رمزية أو.....

باعتبار الرواية كما هو معلوم الجنس الأدبي الأكثر انفتاحاً على القارئ/ الجمهور، مقارنة ومقارنة بين مضامينها من جهة، وكيفية اشتغال مكوناتها داخل المنجز الإبداعي من جهة أخرى.

وقبل الخوض في ذلك لابد لنا من تحديدات مفاهيمية (معرفية) لبعض المصطلحات كمرحلة أولية مهمة يتوقف عليها جدية البحث الأكاديمي ومصداقيته، وسنقتصر على مصطلح الجينالوجيا باعتباره مركزياً في هذه الدراسة.

للمصطلحات حمولة فكرية وفلسفية وأنطولوجية تختلف باختلاف الزمان والمكان والسياس، يجب مراعاتها في عملية النقل أو الترجمة، ولعل هذا من أكبر المشكلات المطروحة اليوم في الأدب والنقد العربي. وللخروج من بوتقة الخلاف والاختلاف لابد من توفر الأسباب التي تزيح ذلك، وهذا غير متاح ومتيسر في اللحظة الراهنة.

أولاً: مفهوم الجينيالوجيا

1- لغة:

كلمة يونانية مركبة من شقين Genea وتعني عرف، و Loge وتعني علم، ومجموعهما (علم الأنساب)، كما تطلق وتستخدم في اللغة العامة.

وقد تغير استخدامها فلسفياً في كتابات (نيتشه) من البحث عن النسب أو السلاسل الاجتماعية، إلى البحث عن أصل ومصدر القيم والأخلاق.

" فالمعنى الحرفي لكلمة الجينيالوجيا كما هو معلوم هو دراسة النشأة والتكوين لإثبات النسب والوقوف عند الأصل " ³.

2- اصطلاحاً:

من التعريف اللغوي نستنتج أن الجينيالوجيا مباحثة في الأصول وسعي جاد في الكشف عن القوى المتسببة في التحول والتغير والانعطاف، وتدل في معناها المباشر على دراسة نشأة الشيء والوقوف عند الأصل الذي صدرت عنه الظواهر.

" فهي العنصر التفاضلي والفارقي للقيم، ذلك العنصر الذي تصدر عنه القيمة ذاتها، إنها تعني الأصل والمولد، لكنها كذلك تعني الفوارق والبعد " ⁴

إنها البحث عن أصل الشيء ومصدره ونقده سواء كان تاريخاً أو فلسفة أو أخلاقاً.

ظهر مصطلح الجينيالوجيا خلال القرن الثالث عشر، وهو مشتق من الكلمة اللاتينية gènealogie المنحدرة من الكلمة الإغريقية GENEALOGOS، ويعني الشق الأول gènea الأصل أما الشق الآخر logos فيعني العلم أي علم الأصول وتعدادها ⁵

3- الجينيالوجيا في الخطاب الفلسفي:

في الخطاب الفلسفي الكلاسيكي (الأفلاطوني والأرسطي): بالعموم تتبع أصول موضوع أو فكرة ما، وتقديم عرض تاريخي متسلسل لظهوره.

وليست الغاية من ذلك تبريره أو إضفاء طابع المعقولية عليه وإنما انتقاده وإبراز طبيعة النسبية عليه، لغاية الحط من قيمته المعطاة له، وهذا ما تبحث فيه الجينيالوجيا؛ بمعنى أنها لا تؤسس، بل إنها لا تحدث قلقاً ابستمولوجياً (معرفياً) ما تعتقده الميتافيزيقا ساكناً وتخلخل ما تظنه موحداً، وتظهر التنوع في ما يبدو منسجماً

6

وهكذا فالجينيالوجيا ليست تتبعا وعرضاً لمختلف الأنساق الميتافيزيقية في أي منظومة فكرية أو إبداعية لتقويضها، كما أنها ليست إثباتاً لمعنى أول أو غاية أولى، وإنما إعادة البناء لمختلف المنظومات الفاعلة، وإثباتاً للأولويات التي أعطيت لمعنى على آخر، إنها وقوف عند الاختلافات والفوارق المولدة لتلك المعاني ⁷

إذا فالميتافيزيقا اليونانية بتأكيدهما على المطلق تمقت التاريخ، وشغفها بالحقيقة والمثل الأعلى منع الاهتمام به، لأن الحقيقة التاريخية من منظورها نسبية، وفي صيرورة دائمة⁸. هكذا أصبح معنى التاريخ جامدا.

أما عند (ديكارت 1596-1650): فإنه لم يول التاريخ أهمية خلافا (لبيكون)، كونه (ديكارت) جعل اليقين في العقل، والحقيقة في الهندسة، ثم جاء (فيكو) ومهد الطريق لأهمية التاريخ لتتشكل بذلك فلسفة التاريخ على يد (فولتير).

4- الجبنيالوجيا في الفكر الفلسفي الحديث:

بالبحث عن روح التاريخ في العصر الحديث من خلال (كانط 1724-1804)، و(هيجل 1770-1831)، و(كارل ماركس 1818-1883)؛ بلغ العقل البشري أقصى ما يمكن من تصور وتجريد، حتى صارت نهاية التاريخ منطقية، لأنها محكومة بإرادة متعالية، وهذا ما أطلق عليه (نيتشه) بالانحطاط أو تاريخ الهروب. والسبب في ذلك الميتافيزيقا بمواضيعها الفلسفية والأخلاقية والدينية.

حينئذ أحدث (نيتشه) تغييرا في معنى التاريخ السابق، محددا بذلك منهجا في البحث التاريخي، مبينا الأسباب المتحركة فيه، منتقلا من الحس التاريخي إلى التفرقة بين الغاية والأصل، وصولا إلى عملية التأويل، فأحدث بذلك قطيعة مع الميتافيزيقا، أدت إلى قلب الفلسفة هيكلها ومنهجها ومهمتها، انفتح من خلالها التفكير الفلسفي إلى آفاق ومنعطفات كثيرة، أبرز تلك المنعطفات العودة إلى الأصول الأولى لعملية التشكل، ونزع الأقتعة وإظهار الحقيقة.

5- الجبنيالوجيا من المنظور الفوكوي:

إن تاريخ الفكر المعاصر في الفلسفة الحديثة بداية من القرن 19، هو بعث براديغم جديد يتجه نحو المساءلة الملحة والبناء للخطاب التاريخي الشامل من وجهة نظر(فوكوية)، تحفر في المضمير والمسكوت عنه لتؤسس لخطاب فاعل وبناء، مستمر التشكل والتحول في الآن نفسه مما يؤدي إلى الصيرورة والديمومة. وهذا ما يبحث فيه النقد الثقافي عموما.

ولذلك نحن بحاجة إل نظرة جديدة في الخطاب تقوم على التساؤل المتكرر، والتفكيك المستمر لبنياته المتبقية من أجل ردها إلى مكانها الصحيح والسليم من خلال " العثور خلف تلك العبارات (البنيات) نفسها على قصدية الذات المتكلمة وعلى نشاطها الواعي، وما كانت ترغب في قوله"⁹

فالجبنيالوجيا بهذا المفهوم (الفوكوي) الجديد في أي مجال معرفي (في السياسة، والإقتصاد، والتاريخ، والأدب)؛ تكمن في التساؤل الملح عن طبيعة تلك الانشطارات الموجودة في الحقل الواحد، أو عدة حقول، وطرح سؤال الكم بدل سؤال الكيف على تلك التقسيمات وهنا يطرح " مشكل التحولات تعمل كتأسيس وتجديد للتأسيس "¹⁰.

فمشروع الفيلسوف والناقد الفرنسي (ميشيل فوكو) يتلخص في:

— طرح الوثيقة التاريخية موضع سؤال؟

— ماذا تقول الوثيقة؟

— وعما إذا كانت تقول الحقيقة أم لا؟

— وبأي حق تدعي ذلك؟

— وما إذا كانت تقول الصدق أم تزيفه؟... إلخ.

بيد أن كل سؤال من تلك الأسئلة، وكل ذلك الهاجس النقدي كان يرمي إلى نفس الهدف، ألا وهو إعادة بناء الماضي انطلاقاً مما تقوله تلك الوثائق.¹¹

وإذا كان هذا ينسحب على الوثيقة التاريخية بالخصوص، فإن الوثائق الأخرى (العلمية والأدبية) تدخل ضمنها، لسبب وجيه وهو أن التاريخ يسكن قلب كل نص.

و(فوكو) ينطلق من تساؤلاته ويعتمد على (مبدأ الشك الديكارتي): في الفهم والتفسير والتأويل لتلك الوثائق. لذا نجد (فوكو) يستثمر صوت (نيتشه) من خلال الجيتيالوجيا في مشروع الفلسفي، فهو لا ينكر فضل هذا الفيلسوف.

بقول (فوكو): إن (نيتشه) " هو الذي أيقظنا من سباتنا الجدلي والأنثروبولوجي، وليست مقولات المأسوي، ودينيوس، ومطرقة الفلسفة، والإنسان الأعلى، والعودة الأبدية سوى أصوات جديدة للتحليل تعوض الأنساق الميتافيزيقية الأكثر عراقية، إنها المقولات التي ترسم خط الاختراق والعدمية التي تتبعه قمم الفكر الجديد أمثال بتاي (G. Ba taile). وبلانشو (M. Blanchot) " ¹².

إن فوكو بهذا القول يقر ويعترف لصاحب الفضل (نيتشه) بأنه محرر الفكر الغربي من الطوباوية الملتصقة بالميتافيزيقا وبأقوال السوفسطائين، والمنطق الكهنوتي، وهذا هو الوعي الحقيقي بالتاريخ... يقول (هيغل): " إن التاريخ الحقيقي للإنسان لا يبدأ إلا مع ظهور الوعي... " ¹³.

لذا كانت الفلسفة عنده (هيغل) ليست مجرد تمثيلات مجردة (ميتافيزيقية)، ولا مفاهيم فارغة، بل إن المفهوم للوعي الحقيقي هو الواقع الفعلي، وأن العقل هو محكم العالم، فلا يمكن فهم التاريخ وصيرورته إلا من طريق الوعي. وهو ما نبحت عنه من خلال متن الرواية (المتن الحكائي).

فما بهم (فوكو) إذا هو رصد التحولات التاريخية فيها (الرواية) وتعرية طبيعتها، فهو يرفض بشدة أن يصنف داخل البنيوية التي تعتبر أن اللغة هي بنية ثابتة (سكونية)، ولكن التساؤل هو ما يثور فيها الحركية والدينامية.

وهذا حق لأن الناس كانت في زمن ما تعتبر أن الفكر مستقل عن اللغة وخارج عنها، وأنه (الفكر) لا يمكن الإمساك به كأنه شيء لا يوصف.. واليوم يسقطون في الخطأ المعاكس، ويحاولون إقناعنا أن الفكر ليس سوى لغة كما لو أن اللغة نفسها لم تكن منطوقة ¹⁴.

يقول في مقابلة معه حول هذا الشأن: " إن البنيوية كانت أكثر المجهودات تنسيقاً لإخلاء عدد من العلوم الأخرى، وحتى التاريخ في النهاية من مفهوم الحدث، ولا أرى من يمكن أن يكون مضاداً للبنيوية أكثر مني، لكن المهم هو أن لانفعل بالحدث ما فعلته بالبنيوية، إذ لا ينبغي أن نعتبر أن هناك سلماً من أنماط الأحداث المختلفة التي ليس لها نفس الأهمية ولانفس الامتداد الزمني، ولانفس القدرة على إحداث تأثيرات " ¹⁵.

إن عبارات (فوكو) ومدلولها لاتقلل من شأن البنيوية وإنما تتمثلها وتتجاوزها إلى رحاب أوسع يكون الفكر فيه حرا غير مقيد بحدود اللغة الفاشية / القمعية والتي تسجن القارئ النسق النصي وتقلل من محدودية التأويل لديه، لذلك حدثت قطيعة في التصور الفوكوي معها من خلال الحفر كنظام ابستيمي يدرس الماضي البشري ويحاول تفسيره بشواهد ومعالمه، وسبر أعماقه من أجل الكشف عن وقائع خفية غير منظورة في حقبة زمنية معينة.

ثانيا: المضامين الفكرية والإجتماعية في الرواية من المنظور الفوكوي:

والرواية التي بين أيدينا (الليالي حبل بالأقمار- مجال الدراسة-)، هي وثيقة تسرد أحداثا من الماضي، يتحدد زمانا ومكانا بتشكيلة خطابية، ينبغي تحديد شروط إنتاجها أو ظهورها من حيث إنها - المفوظات - هي الوحدة المركزية للخطاب، وهو الحقل الذي تدور حوله الأركيولوجيا من خلال الأسئلة والبحث باعتبارها استراتيجية تحليلية للممارسات الخطابية وتتبع للمعرفة في تحولاتها..

سنستثمر تلك المقولات الفوكوية لإثارة تساؤلات عن تلك المضمرات النسقية في روايتنا السالفة الذكر، والبحث في الأسس المشكلة لتلك المضامين التي تبوح بها من خلال " مجموعة من التساؤلات حول الشروط القبلية والمعايير المسبقة التي تكمن وراء ظهور المعارف وأشكالها، ماهي تلك الأفكار والأحكام المسبقة التي تنظم كل عصر انطلاقا منها..؟، ماهو ذلك النظام الخفي الذي يربط في مستوى عميق بين مختلف المعارف والعلوم في مرحلة، والعلوم في مرحلة تاريخية معينة " ¹⁶

ثالثا: الإطار الزمني والمكاني للرواية:

وقعت أحداث هذه الرواية (الإجتماعية/ الواقعية)، في إحدى القرى الجزائرية الشرقية زمن الاستعمار الفرنسي للجزائر، وتصور الحالة الاجتماعية البائسة لسكان القرى والمداشروالأرياف، أبطالها أشخاص حقيقيون وكذلك أسماءهم.

تتلخص أحداثها بين ثلاث منعرجات أساسية مفصلية، أولها: الواقع الفكري / المعتقدي الذي يدين به الفرد الجواثري ويتبناه، ويمكن أن نصنفه ضمن نسق الدين والعرف (كقيمة كبرى).

وثانها: الواقع الاجتماعي المتمثل في الحياة القروية / البدائية للفرد الجزائري في الفترة الإستعمارية، ويمكن أن نلمسه من خلال طبيعة العمران، وطريقة توزيع الأهالي والمتساكنين في القرى والمداشر، ونمط المعيشة لهم، ومكان تواجدهم، وذكر أيامهم..

وثالثها: الواقع السياسي الذي كان سائدا في تلك الفترة وعلاقته بالواقع الإجتماعي.

لقد كانت الذاكرة الجمعية ممثلة في الثورات الشعبية، والثورة التحريرية نقطة مركزية في تدوين التاريخ في تلك الفترة، واستخلاص مافيهما من العبر، ومحطة من المحطات الكبرى التي وقف عندها الشعراء والكتاب والنقاد على اختلاف أطيافهم وأزمانهم.

لقد دونوا تلك المآثر، وذكروا تواريخها وأبطالها، سماءها وجبالها، أنهارها ووديانها، قراها ومداشرها، في منشور القول ومنظومه.

والمغزى من ذلك كله هو تدوين الخبر وتأصيله، حتى يكون شاهدا على حقيقة ما، وهذا ما يحقق الارتباط

الحقيقي بين التاريخ والأمة، ويجسد تلك اللحمة المتماسكة بين الأفراد جيلا بعد جيل.

ففي فصول الرواية ومقاطعها الثلاثين (من 0 إلى 29)، نلمس تاريخاً مرمزاً، واحد قصير المدى والآخر طويل..

أما الأول: فهو عبارة عن عدد أيام الشهر الثلاثين بالتمام، هذا إذا اعتبرنا الشهر ميلادياً مكتملاً، لذلك ابتدئ عنوانها بـ " الليالي...."، وأما إذا اعتبرناه هجرياً فيمكن أن يكون الشهر تسعاً وعشرين- والشهر في لغة العرب أكثره ذلك -، لذلك ختمت الرواية بالمقطع التاسع والعشرين، وهذا له دلالة رمزية ونسق ثاو خلف أرقام تلك المقاطع، هو التقويم الهجري الذي أصبح هامشاً بعدما كان أصلاً تبنته المؤسسة الرسمية / الدينية، وتبناه المسلمون منذ القدم.

وأما الثاني: فهو عبارة عن حقبة طويلة (زمن السرد أو زمن الرواية)، وهو عبارة عن تاريخ طويل يعود إلى زمن الاحتلال الفرنسي للجزائر منذ 1830 وإلى بداية التسعينات، وما وقع فيه من أحداث ومحطات كبرى تمس جانب الهوية، والصراع بين الحق والباطل من أجل الحرية للشعب الجزائري، حرية كاملة غير منقوصة، لكن السؤال هنا هل ما طرحته هذه الرواية من أحداث باعتبارها من الماضي صحيحة؟ هل كانت تقول الصدق أم تزيفه؟ وبأي حق تدعي ذلك؟

بيد أن كل سؤال من تلك الأسئلة كان يرمي إلى إعادة بناء الماضي انطلاقاً مما تقوله تلك الرواية / الوثيقة.

هذه هي النظرة الفوكوية، وهذا هو مشروعه المعتمد على الشك الديكارتى في تحليل النص / الخطاب، وحسبه (فوكو) فـ " ليست الوثيقة الأداة السعيدة لتاريخ يكون في ذاته وبكامل الحق ذاكرة.."¹⁷ لانشك البتة في أن الثورة التحريرية الكبرى كانت أصيلة المبدأ والمنشأ، غايتها إعلاء كلمة الحق، ودحر الظلم والإستعمار والعدوان على الوطن، وهو ماتحقق واقعا مشاهدا وملموسا، لكن هل كان ذلك عن وعي بحقيقة المستعمر الكافر الذي ماجاء إلا ليغير الهوية (اللغة والدين)، ويطمس المعالم الواضحة للشعب الجزائري الذي لبي نداء العقيدة من طرف الوطنيين المخلصين والدعاة إلى الله الصادقين. لانريد أن نصدر حكماً قليلاً قبل أن نعرض وجهة نظر فوكو ونقابلها بمنطوق الرواية، وبما ترسخ في الذاكرة الجمعية وأصبح حقيقة لا تقبل الشك بأي وجه كان.

ففي المقطع السادس من الرواية (صفحة 112) يشير الراوي إلى سنة 1916، والتي وقعت فيها معركة (فيردان)، واستشهد فيها من استشهد.

يقول: " ما أتعس الأرواح حين تهرق دماؤنا في معركة فيردان (verdun) متغربة عن الأوطان! هذا الشهيد من الكلام كان يردده أخي إبراهيم البراني، وهو آنذاك كان من أبرز قادة ثورة 1916"¹⁸.

فإذا نظرنا إلى هذا المقطع الروائي من الداخل نجد تناقضا لغويا وداليا.

فما العلاقة بين " ما أتعس الأرواح....! و.... هذا الشهيد من الكلام....".

فالعلاقة هنا مشكلة للفهم... ومبهمة...

"... إنها حدث غريب: لأنها ترتب أولاً بفعل الكتابة والنطق من جهة، ولأنها تنفتح من جهة أخرى على وجود قابل للاسترجاع في حقل التذكر.."¹⁹.

فإن العبارة ببساطة " .. لاترتبط بالمواقف التي سببت حدوثها، أو بتلك التي تترتب عنها كنتائج لها، بل وكذلك بصورة مخالفة بالعبارة التي تسبقها، وتلك التي تلحقها"²⁰.

إذا فلا السياق ولا المعقولية ساعدتا في استقامة هذه الملفوظة ووضوحها ومطابقتها لمقتضى الحال... - من وجهة نظر فوكوية- نتفق أو نختلف معها.

وفي المقطع الثالث عشر، يقول الراوي: " ما أحلى الحكايات العجائبية التي تسمعها! وما أمتعها حين تعيشها بنفسك، وتحكمها لغيرك! وهذا ما وقع لي في الأيام الأولى... "²¹.

فالشطر الأول من الجملة لا ينطبق على الشطر الثاني.... لأن الحكايات العجائبية لا يمكن أن يعيشها المرء حقيقة بل كتخييل فقط، لا كواقع ملموس.

لذلك يردف (فوكو) بالقول: " علينا أن نقف موقفا نقديا من تلك الأشكال المسبقة الجاهزة التي يتقمصها الإتصال، ومن كل التركيبات التي لانتساءل حولها، وهذا ما يسمح لها أن تفرض نفسها على الجميع؛ لانريد بطبيعة الحال من ذلك أن نرفضها بصورة نهائية وبكيفية مطلقة، بل ينبغي خلخلة اليقين الذي جعلنا نقبلها على علاتها؟ وإظهار أنها ليست بديهية ولا أزلية.. "²².

وفي المقطع السادس عشر، يقول الراوي: " خرجت النساء في هلع لاوصف له إلا فيما ذكر عن مشاهد يوم القيامة "²³ وهذا قياس مع الفارق؛ فلا يمكن أن يكون المشهدان متساويان حدثا وخبرا، وذلك لأن أحوال الدنيا ومصائبها لايمكن أن نقيسها على أهوال يوم القيامة، فبين الحالتين من الفروق مالا يدركه إلا الله سبحانه وتعالى.

وفي المقطع الرابع، يقول الراوي: " أهل قرية بني حفيان متفقهون في الدين، ويحفظون القرآن، ويطلبون العون والبركة من الولي الصالح، ويلتجئون إلى مرابط لخضر حين تنزل عليهم نوازل.. "²⁴.

فهذا المقطع وإن كان يصف / يصور عادة أهل القرية ومعتقدهم، فإنه لا يخلو من فساد تأباه الفطر السليمة، وإلا كيف يستوي النقيضان؛ الفقه في الدين والالتجاء إلى المخلوق حيا أو ميتا لكشف كربة أو جلب منفعة، ولكنه واقع الحال.

يقول (فوكو): "لن أقبل بالمجموعات التي يقترحها علي التاريخ، إلا لعرضها فورا على محك السؤال.. "²⁵.

فهل مايقوم به أهل القرية صحيح، يقبله العقل والمنطق أم لا؟

لا شك أن هذا من عادات أهل الجاهلية، قال تعالى ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهُتَدُونَ ﴾²⁶

فنسق العادة / العرف القابع خلف المتوارث الديني مستتر به ومتخف، ومع ذلك فإن ظهوره وانتشاره قد يكون في زمن دون آخر سبب في خلخلة مااستقر في النفوس من العبادات المحضة والتقرب إلى الله سبحانه دون سواه، لذلك تجد الصراع النسقي قائما بينهما منذ القدم.

إن النسق العرفي كان ولايزال الملاذ القريب، والممتطى السهل في حياة البعض ممن قل فيهم العلم الشرعي وحسن التوكل، لذلك تجده منتشرا بين أوساط العامة يلجأون إليه إذا حل بهم أمر، أو نزلت بهم نائبة. ولعل هذا ما ساعد في انتشار الخرافة وتثبيتها بشكل كبير، وأطال أمد الإستعمار في العديد من البلدان ومن بينها الجزائر.

إن طبيعة الصراع بين الثنائية (الدين والعرف) تلقي بظلالها على مسار الرواية، وتتخذ مكانا مركزيا فيها، يتوضع عليه البناء الاجتماعي، ويفرضها في لحظة من اللحظات لتصبح نظاما / نسقا، يتحكم في الوعي واللاوعي الجمعي.

لنتأمل هذا المقطع: " يابني أريدك أن تنسى اعوجاج تفكير جدك، وسوء نيته في الأولياء والمرابطين، وعقوقه المتمرد على التماس الخير والبركة من منبعها الأصلي الصافي.. " ²⁷

هذا المقطع على لسان الجدة (خديجة)، بفكرها الساذج / العامي، تعبر فيه عن اعتقادها في الأولياء والمرابطين (على الأضرحة والمقامات)، وتؤكد أن ذلك هو الحق والأصل، وهو معتقد أغلب أهل القرية، خلافا للجد (عبد الواحد) الذي لا يقر بتلك الطرق ولا يعترف - بها فهو إصلاحى باديبي-، وهي تتمنى أن لو كان (الجد) مثلها، حيث تقول: " حبذا لو كان جدك مثلي ومثلك ومثل أبيك لما غابت عنا السعادة! " ²⁸

نستنتج من هذا المشهد أن هناك صراعا نسقيا بين الفكرين / الوعيين؛ الأول (ظاهر) على لسان الجدة وهو اعتقاد العامة، والثاني (مضمّر/ مهمش)، وهو معتقد الخاصة (الجد عبد الواحد وحفيده الحسين)، بطل الرواية الذي رد على جدته بقوله: " أنا أريد أن أكون نسخة من جدي وعمي عمر.. " ²⁹

رابعاً: خلاصات واستنتاجات:

- إن التشكيلات الخطابية التي اعتمدها الراوي في المقاطع المذكورة في مبناه الحكائي لتشخيص الأحداث لا تلامس الحقيقة الواقعة، والسبب في ذلك عامل التأثير والتأثر الذي يتعرض له المفهوم / المدلول الواحد الذي وظفه، وكذلك الحادثة الواقعة، ومن هنا وجب البحث عن المعنى الحقيقي خلف المعنى المجازي الذي جنح له الراوي / الكاتب.

- البحث عما وراء الخطاب بالسؤال والشك مهمة الباحث / الناقد الأركيولوجي، وهي عملية بناء جديدة يجب معرفة قواعدها، وفحص طرقها، وتحديد شروطها.

- العلاقة الجدلية / الديالكتيكية بين المضامين الثلاث المشكلة للرواية (الفكرية والاجتماعية والسياسية)، وتأثير كل واحدة منها في الأخرى سلبي وإيجابا.

- إن الرواية: ((الليالي حبلى بالأقمار))، حبلى بالأنساق الثقافية المتنوعة والمترابطة، وكان النسق البارز نسق الدين والعرق الذي كشف عن هوية المجتمع الجزائري.

- الصراع على الثوابت بين أنصار الإسلام الصحيح المبني على العلم والمنهج الواضح، وبين الإسلام الوراثي المبني على التقليد والإتباع.

- كشفت الرواية كذلك عن أزمة الهوية في الفترة الاستعمارية، ضمن نسقين متعارضين هما نسق العلم ونسق الجهل، حيث يبرز نسق الجهل والتقليد، ويتوارى نسق العلم والتجديد.

- كما أفرزت الرواية سيطرة العادة / الخرافة على المجتمع، والتشبث بها كنسق أفرزته الثقافة في تلك الفترة.

- سيطرة الفكر الطوباوي كنسق مركزي وتثبيت أسبابه في المجتمع التقليدي، من خلال سياسة التجهيل الممنهجة للاستعمار الفرنسي وأعدائه، وتفشي ظاهرة الفقر في أوساطه، الأمر الذي أطال أمده ومكوثته.

هوامش وإحالات المقال

- 1- آرتر إيزابجر، النقد الثقافي، تمهيد مبدئي للمفاهيم الأساسية، ترجمة: وفاء إبراهيم ورمضان بسطاوي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2003، ص 31
- 2- يوسف عليمات، النسق الثقافي، دراسة في أنساق الشعر العربي القديم، عالم الكتب الحديث، جدارا، الأردن، ط1، 2009، ص 165
- 3- عبد السلام بنعبد العالي، أسس الفكر الفلسفي المعاصر، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1991، ص 25
- 4- المرجع نفسه ص 29
- 5- حسيبة مصطفى، المعجم الفلسفي، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2009، ص 157
- 6- المرجع نفسه، ص 157
- 7- عطية أحمد عبد الحلیم، نيتشه وجذور ما بعد الحداثة، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2010، ص 331
- 8- مصطفى النشار، من التاريخ إلى فلسفة التاريخ. قراءة في الفكر التلريخي عند اليونان، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، (دط)، (دس)، ص 52
- 9- ميشال فوكو، حفریات المعرفة، ترجمة: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، ط2، 1987، ص 27
- 10- المرجع نفسه، ص 07
- 11- المرجع نفسه، ص 90
- 12- عبدالله عبد اللاوي، حفریات الخطاب التاريخي العربي، المعرفة - السلطة - التمثلات، ابن النديم للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، ط1، 2012، ص 40
- 13- هيجل، محاضرات في فلسفة التاريخ، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، مراجعة: فؤاد زكرياء، ج1، دار التنوير، ط2، (دت)، ص 38-39
- 14- عبد الله عبد اللاوي، مرجع سابق، ص 36
- 15- المرجع نفسه، ص 36
- 16- المرجع نفسه، ص 43
- 17- ميشال فوكو، حفریات المعرفة، ص 28
- 18- معمر حجيج، الليالي حبلی بالأقمار، دار المثقف للنشر والتوزيع، ط1، 2018، ص 112
- 19- ميشال فوكو، حفریات المعرفة، ص 08
- 20- المرجع نفسه، ص 28
- 21- معمر حجيج، الليالي حبلی بالأقمار، ص 158
- 22- ميشال فوكو، حفریات المعرفة، ص 25
- 23- معمر حجيج، الليالي حبلی بالأقمار، ص 182
- 24- الرواية نفسها، ص 87-88
- 25- ميشال فوكو، حفریات المعرفة، ص 26
- 26- سورة الزخرف، الآية (22)
- 27- معمر حجيج، الليالي حبلی بالأقمار، ص 89
- 28- الرواية نفسها، ص 90
- 29- الرواية نفسها، ص 90

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- 1- آرتر إيزابجر، النقد الثقافي، تمهيد مبدئي للمفاهيم الأساسية، ترجمة: وفاء إبراهيم ورمضان بسطاوي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2003.
- 2- حسيبة مصطفى، المعجم الفلسفي، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2009.
- 3- عبد السلام بنعبد العالي، أسس الفكر الفلسفي المعاصر، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1991.
- 4- عبدالله عبد اللاوي، حفریات الخطاب التاريخي العربي، المعرفة - السلطة - التمثلات، ابن النديم للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، ط1، 2012.

- 5- عطية أحمد عبد الحلیم، نيتشه وجذور ما بعد الحداثة، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2010.
- 6- مصطفى النشار، من التاريخ إلى فلسفة التاريخ، قراءة في الفكر التاريخي عند اليونان، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، (دط)، (دس).
- 7- معمر حجيج، الليالي حبلی بالأقمار، دار المثقف للنشر والتوزيع، ط1، 2018.
- 8- ميشال فوكو، حفریات المعرفة، ترجمة: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، ط2، 1987.
- 9- هيغل، محاضرات في فلسفة التاريخ، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، مراجعة: فؤاد زكرياء، ج1، دار التنوير، ط2، (دت).
- 10- يوسف عليمات، النسق الثقافي، دراسة في أنساق الشعر العربي القديم، عالم الكتب الحديث، جدارا، الأردن، ط1، 2009.